المحاضرة الأولى نشأة النحو العربي

أولا النحو العربي ــ المفهوم والمنهج

1ـالنحو لغة: النحو لغة مصدر مشتق من الفعل نحا ينحو: بمعنى القصد.

وجاء في لسان العرب: النحو: القصد والطريق، نحاه ينحوه وينحاه نحوا، وانتحاه، ونحو العربية منه: إنما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم.

وهو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحوا، كقولك قصدت قصدا، ثم خُصَّ به انتحاء هذا القبيل من العلم. والجمع أنحاءٌ ونُحوٌّ[1].

2ـ كيف نشأ النحو العربي؟

يعزو معظم الدارسين والباحثين في تاريخ النحو أسباب نشأة النحو العربي ـ بحسب كثير من الروايات التاريخية الموثوقة ـ إلى تفشي ظاهرة اللحن التي صاحبت الفتوحات الإسلامية ودخول كثير من الأمم الأعجمية في الإسلام.

واللحن لغة من قولهم لحَّن إذا غرّد وطرّب فيها بألحان؛ وفي الحديث الشريف: اقرؤوا القرآن بلُحون العرب. وهو أَلحنُ الناس إذا كان أحسنهم قراءة أو غناءً. واللّحنُ واللَّحَنُ: ترك الصوابِ في القراءة والنشيد وغير ذلك. ورجلٌ لاحنٌ ولحَّانٌ: يُخطئُ[2].

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، مج: 6، مادة: نحا.

(2) المصدر نفسه، مج: 5، مادة: لحن.

وقد ظهر اللحن مُبكّرا في عهد رسول الله ﷺ؛ حيث يذكر ابن جنّي في معرض حديثه عن فساد لسان أهل البادية بأن النبيّ ﷺ سمِع رجلا يلحن في كلامه فقال:((أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلَّ))[1]. مما يدلّ دلالة واضحة على أن ظاهرة اللحن، كانت الباعث الأول على جمع اللغة وتدوينها واستنباط القواعد وتصنيفها.

ولا يزال اللحن يتّسع وينتشر مع اتساع رقعة الأمصار الإسلامية، حتى لامست مساوئُه بعض من آيات الذكر الحكيم، حيث رُوي بأن قارئا في عهد عمر بن الخطاب ـ قرأ قول الله تعالى: ((وأذانٌ من الله ورسُولِهِ إلى النّاسِ يومَ الحَجِّ الأكبرِ أنَّ الله بريءٌ من المشركينَ ورسُولِه))[2] بالكسر. حتى إذا سمع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مقالته دعاه وصحّح له القراءة، وأمر ألا يُقرئ القرآن إلا عالم باللغة.

وتتابع الروايات التاريخية مؤكّدة على ضرورة أن يجد العلماء حلا لهذه النازلة، وهو الأمر الذي نهض به أبو الأسود الدؤلي وجسّده بوضوح، من خلال نقطه للمصحف بنقاط تبيّن اختلاف الحركات الإعرابية من قوله تعالى:(بسم لله الرحمن الرحيم) إلى آخر آية ختم بها المصحف. ولا شك بأن هذا الصنيع العظيم هو فاتحة الدراسات اللغوية والنحوية التي تلت نقط المصحف، وفتحت الباب على مصراعيه أمام الباحثين والدارسين للبحث والتقصي والاجتهاد، في كل مستويات اللسان الذي يصون باستقامته القرآن الكريم.

---

(1) ينظر: ابن جني: الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج2، ص8.

(2) التوبة: الآية: 3. والصواب أن تقرأ بالنصب أو بالرفع.

3ـ واضع علم النحو

يقول ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء: ((وكان أول من أسّس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسَها: أبو الأسود الدُّؤلي (...) وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب، فغلبت السليقيّة، ولم تكن نحويّة، فكان سراة الناس يلحنون، ووجوه النّاس، فوضع باب الفاعل والمفعول به، والمضاف، وحروف الرفع والنصب والجرّ والجزم.))[1] .

ومعنى قول ابن سلام أن أبا الأسود الدؤلي (ت69هـ) هو أول من وضع النحو أي الضوابط التي تحدد حدود الصواب من الخطأ، بعد أن كان الناس يتكلمون على سجيتهم لا يعلمون من أمر الإعراب شيئا، فيسترسلون في كلامهم من غير تعمّد إعراب ولا تجنّب لحن، حتى أنشأ لهم أبو الأسود هذا العلم الذي سمّاه بعلم العربية.

ورغم كون هذه العناية قد بدأت بمعالجة لحظية لظاهرة اللحن التي ما فتئت تظهر ملامحها على بعض ألسنة العامة، إلا أنها سرعان ما اتّخذت صورة حقيقية لصناعة قواعدية مثلى، تتخذ من الحركة الإعرابية ضابطا أساسيا لتحريك جميع مستويات البنى اللفظية التي كانت محلّ تغيير دائم وفق نظام العوامل، حتى جال في خاطر من لا يتقن كُنْه العربية بأنها مجرّد حركات تتوارد على أواخر الكلم في العربية، وحينئذ تتدخّل المعاني لتفصح عن سرّ

---

(1) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تح: محمود شاكر، دار المدني، جدة، م ع س، السفر الأول، ص12.

ـ السليقية: نسبة إلى السليقة، والسليقي من الكلام ما لا يتعاهد المرء إعرابه، وهو فصيح بليغ في السمع، والسليقة تعني السجيّة.

سَراة الناس: بفتح السين، هم أهل الشرف والسخاء والمروءة.

صلاح حركة إعرابية دون أخرى.

وهكذا جعل أبو الأسود الدؤلي من (نقط الإعراب) حدًّا منيعا أمام أي تغيير قد يطرأ على بنية اللغة العربية، مُخلّفا وراءه أثرا ظاهرا تكشف عنه كثرة الروايات التي تشيد بصنيعه وتجعل منه أول من ضبط المصحف ووضع العربية[1].

وعلى خطى أبي الأسود الدؤلي، نهض تلاميذه من بعده وعلى رأسهم نصر ابن عاصم بنقط حروف المصحف الشريف، وهو ما يسمّى عند العلماء بنقط الإعجام، تمييزا له عن نقط الإعراب.

4ـ البصرة تضع النحو

يكاد يُجمع الدارسون على أن النحو العربي نشأ أولا بالبصرة وهي أكبر حاضرة بالعراق آنذاك، حيث يؤكد المؤرخون بأن النحو العربي ظل بصريا زهاء مائة عام حتى وصل إلى الكوفة. تميّز علماؤها بالمنهج اللغوي العلمي القائم على وضع قواعد عامة، وتأسيس قوانين كليّة للغة في الرفع والنصب والجرّ والجزم فكانوا يأخذون من أجل تحقيق غرضهم بالشواهد الموثوق بصحّتها، الكثيرة النظائر، المسموعة من العرب الفصحاء باطّراد، فكانت قوانينهم وقواعدهم التي أقاموها على هذه الشواهد أقرب إلى الصحة والدقّة[2]. أما ما ورد من كلام العرب مخالفا للقواعد فكانوا يؤولونه أو يحكمون عليه بالشذوذ ولذلك نشأت عندهم قاعدة عامة تقول بأن الشاذ يحفظ ولا يقاس عليه. بينما كانت الكوفة مهتمة بالقراءات القرآنية، ورواية الأشعار.

وأول من يصادفنا من علمائها هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي(117هـ)

---

(1) ينظر: عبد الكريم الأسعد: الوسيط في تاريخ النحو العربي، دار الشواف، الرياض، م ع س، ط1، 1992، ص33.

(2) المرجع نفسه، ص36 وما بعدها.

وهو ليس من تلاميذ أبي الأسود، ولكنه من القرّاء الكبار الذين تركوا بصماتهم جلية في البدايات الأولى لعلم النحو، يقول ابن سلام: ((ثم كان من بعدهم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وكان أول من بعج(فتق) النحو، ومدّ القياس والعلل(...) وكان ابن أبي إسحاق أشدَّ تجريدا للقياس))[1] .

5ـ أهم علماء البصرة

1ـ عيسى بن عمرو الثقفي(149هـ)، أستاذ الخليل بن أحمد الفراهيدي، أشهر مصنفاته ((الجامع)) و((الإكمال)).

2ـ أبو عمرو بن العلاء(ت154هـ)، هو أحد القرّاء السبعة المشهورين، قال في حقه الجاحظ: ((كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيّام العرب وأيام الناس))[2] وهو من اللغويين الكبار والرواة الثقاة الذين حفظوا وحافظوا على اللغة العربية.

3ـالخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175هـ)؛ وهو أشهر من أن نعرف به.

ـ مخترع علم العروض وعلم الإيقاع.

ـ واضع أول معجم لغوي عربي، مرتبا ترتيبا صوتيا، ضمّنه قانون الاشتقاق والتغييرات التي تلحق جذر الكلمة من خلال مبدأ القلب الرياضي. واضعا أمامه الحروف العربية على حسب مخارجها في جهاز النطق، بادئا بحرف العين، ثم: الحاء والهاء والخاء، الغين، القاف، الكاف، الجيم، الشين، الخ...

ـ اخترع علامات الضبط؛ فالفتحة ألف صغيرة، والضمة واو صغيرة والكسرة،

---

(1) ابن سلام: طبقات الشعراء، سف1، ص14.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2003، ج1، ص 44.

ياء صغيرة.

ـ وضع قوانين الصرف (الإعلال والقلب والإبدال)، وقوانين القلب المكاني وكثير من المصطلحات الصرفية والنحوية.

ـ تثبيته لأركان نظرية العامل والمعمول.

ـ تأصيله لقواعد النحو وإقامة بنيانه على السماع والتعليل والقياس.

ـ وضعه للتمارين النحوية والصرفية، وغايتها تمرين وتدريب عقل المتعلم.

ثانيا ـ أهم المصنّفات النحوية بعد الخليل:

1ـ الكتاب: عمرو بن عثمان بن قنبر(ت180هـ)؛ إمام المدرسة البصرية. معظم ما ورد في مصنفه من علم الخليل ومحاوراته.

2ـ الكسائي(189هـ): إمام المدرسة الكوفية، ((مل تلحن فيه العامة)).

3ـ أبو عثمان المازني(249هـ)، ((المنصف)) في التصريف.

4ـ المبرد(أبو العباس محمد بن يزيد) (ت285هـ)، له: ((المقتضب)) وهو أهم كتبه النحوية. والكامل في اللغة والأدب.

5ـ ابن السراج(ت316هـ)، له الأصول في النحو.

6ـ أبو علي الفارسي(377هـ)، له: الإيضاح.

7ـ ابن جني(392هـ)، أهم مصنفاته: الخصائص، و سرّ صناعة الإعراب.

8ـ الجرجاني عبد القاهر(ت471هـ)، دلائل الإعجاز، المقتصد في شرح الإيضاح، العوامل المائة.

8ـ الزمخشري(أبو القاسم محمود جار الله)،(ت538هـ)، له: المفصّل في صنعة الإعراب، الكشاف (تفسير نحوي وبلاغي للقرآن الكريم).

9ـ الأنباري(كمال الدين)(ت577هـ)، له : الإنصاف في مسائل الخلاف، أسرار العربية، والإغراب في جدل الإعراب.

10ـ السهيلي(581هـ)، أهم مصنفاته في النحو، ((نتائج الفكر)).

11ـ ابن مضاء القرطبي(ت592هـ)، أهم مصنفاته: ((الرد على النحاة)).

12ـ ابن مالك الأندلسي(670هـ)، أهم مصنفاته: الخلاصة الألفية، الوافية في شرح الكافية، شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد.

13ـ ابن هشام الأنصاري(761هـ)، أهم مصنفاته: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك.